ماهية حلم

لمياء عبد السلام

opeikan.com

الكاتبة في سطور

لمياء عبد السلام من مواليد طنجة..

خريجة كلية الآداب والعلوم الإنسانية..

قسم دراسات إسلامية..

كاتبة هاوية للحروف ومؤلفة لبعض القصص القصيرة والحكايات..

كاتبة لرواية طوق حمامة بربشتر المنكسر.. رواية إلكترونية..

مُهتمة بالتاريخ الأندلسي.. وباللغة الإسبانية وبالثقافات المختلفة..

وباحثة عن كل معاني الجمال والجلال.. وكل ما يجعل مني إنسانة أفضل...

لمتابعتي على موقع التواصل الاجتماعي (فيس بوك)

lamiae akhamlich

oberkan.com

ماهية حلم

الحلم.. ليس هو ذلك الطيف الجميل الذي يزورك وأنت مُغمض العينين.. فترقص فيه على بتلات الزهور.. وتُسافر فيه وتقطع الفيافي والبحور.. ثم تمتلك بأرضه لكل أسباب الحبور.. والحلم.. أيضًا ليس بتلك الوسادة البيضاء الناعمة.. المُحتضَنة ليلًا... والتي يتوسد بها العقل المُتعب من اللحاق بعالم قاس.. جبار.. وخشن..... الحلم إن شئت.. إن شئت أنت فقط.. هو رداء جميل.. نسجت خيوطه من ألوان الطيف..

فغزل منه الحرير.. والديباج.. والصوف.... كي يواري الأرواح.. يُدفئها.. ويمنحها الأمان والإيمان بالغد... غير أن فتلاته السحرية تلك.. تنسل منه بسرعة كبيرة.. فاحذر من لصوص الأحلام.. واحرص على أن لا يُنتزع منك.. فتصير عاريًا.. وروحك ترتعش من قساوة الحياة.. فيلوك اليأس وجدانك.. هكذا كانت تقرأ رحمة في مجلتها المُهترئة تلك، والتي كانت تستمد من إحدى مقالاتها الإلهام، فترى في بطلة أدمنت على قراءة سيرتها دفئ خيوط الشمس التي تلف روحها بالاطمئنان والانبهار معًا.

نعم هي غدًا سوف تجتاز مُقابلة شفهية في كلية الطب؛ ذلك الهدف والأمل والحلم الجميل الذي لطالما اجتهدت للوصول إليه، والآن أصبح قاب قوسين أو أدنى، الآن ستبدأ في تحقيق طموحها أخيرًا، بتقديم أفضل ما في ثنايا نفسها من حب وعطف وإنسانية، ستكون خير سند وعون للفقراء والمعوزين أمثالها، فهي ابنة ذلك البيت الصغير جدًا في تلك الحارة الفقيرة، يتيمة الأب، أما الأم فمقهورة

مغلوبة من طرف ذلك الزوج الحشاش الفاشل؛ زوج الأم.

كانت رحمة تشتغل أحيانًا فتُساعد أمها في أعمال التطريز؛ ذلك العمل، الذي أنهك عيون أمها المُكافحة فباتت تشتكي من ذلك المجهود الإجباري، الذي يوفر لهم دخلًا بسيطًا يُساعدهم في أيامهم العجاف، أما زوجها فقد كان يعمل أيضًا، ولكنه، كان يعمل لنفسه ولإدمانه فقط، وإن نفد منه المال، وهذا ما يحدث معه غالبًا، فإنه يأخذ ما تجنيه زوجته المسكينة من تلك المبالغ الزهيدة، هكذا كانت الحياة بالنسبة لرحمة دائرة معاناة، ناعورة منخورة، في أرض مهجورة.

قرأت في مجلتها سيرة طبيبة أمريكية سمراء، تُدعى باتريشيا باث؛ تلك المرأة التي ألهمتها كثيرًا، فهي رغم مُعاناتها طوال مسيرتها من النظرة الدونية لكونها امرأة سمراء من أصول إفريقية، إلا أن ذلك لم يعقْ أبدًا دورها الإنساني في مجال الطب وجراحة العيون، فساعد مجهودها العديد على استعادة بصرهم وإزالة العُتمة عن عيونهم، ورحمة تُريد أن تكون مثل هذه السيدة لمُجتمعها، وهي تستطيع وتقدر، فهي فتاة ذكية؛ مُجتهدة طموحة؛ عطوفة.

كانت تُردد كلام باتريشيا الذي نُسخ في عقلها ووجدانها.

"لا تسمحوا لنمط التفكير السائد للأغلبية، أن يفرض سجنًا على عقولكم، تذكروا أن آفاق العلم، تتجاوز كل حدود الخيال.. "

وعلى جناح العلم حلقت، وبرداء الحلم تدثرت في ليلتها تلك، استعدادًا لصباحها المجيد، استفاقت رحمة باكرا، فعليها قبل الذهاب إلى الجامعة مساعدة أمها المتعبة في إعداد وجبة الفطور، وتوفير العديد من الأمور.. ولعلها أيضًا تتجنب في يومها ذاك، غضب زوج أمها المتجبر..وبعد أن انتهت، استعدت

لمغادرة البيت.

مدت يدها لفتح الباب، لكنه ظهر فجأة كجني شقي، ليمنعها ويصدها عن الخروج، كان يبدو في ذلك الصباح وقد لبسته حالته المقرفة تلك والتي يتحول فيها إلى شخص عدواني، شخص مستبد ومتهكم..

قال:

"مالك والدراسة... أمثالك لا يصلحون لها...يجب أن تعملي وتوفري لهذا البيت المال... "

ارتعدت من قبضة يديه التي سدت عليها الطريق، وأحست بالخوف، لكنها نظرت إليه واستعطفته..

"أرجوك دعني أمضي إنه يوم هام جدًا..أرجوك.. فلدي اختبار إن فاتني فسيضيع مني كل شيء.. "

ضحك هو بخشونة واستهزاء..

"لن تذهبي إلى هناك.. المكان الوحيد الذي يجب أن تذهبي إليه.. هو المكان الذي تجنين فيه المال.. وليس هذه الترهات التي تضيعين فيها وقتك..."

تدخلت الأم مُتوسلة ومُستعطفة إياه هي الأخرى، ولكن دون جدوى، فلسوء حظ رحمة كان ذلك الصباح من الصباحات التي لا تشرق فيها الشمس على ذلك البيت، مر بعض الوقت وهم يصارعون تلك الريح العاتية المُهلكة، إلى أن أخرجت أم رحمة بعض أوراقها النقدية المُدخرة؛ والمكنوزة المخفية عنه، فما أن رآها حتى نسي أمر رحمة، وأخدها بغبطة وصاح..

"كنت أعلم أنكِ تخفين عني المال.. "

ركضت رحمة باتجاه الباب وغادرت بسرعة.

ولم يحل ذلك من أن تترامى إلى أذنيها كلماته المسمومة.

"اذهبي لكنك لن تفلحي أبدًا.. فأنتِ عديمة الحظ.. "

لم تعْ أبدًا كيف سارت بين الشوارع ولا كيف اجتازت كل تلك المسافة الفاصلة بين بيتها والجامعة، فكل همها كان أن تصل، وأن لا تُفوت فرصتها.

وأخيرًا وعند باب القاعة نقرت بطرق خفيف وفتحت الباب، كان هناك أستاذين مُنهمكين في استجواب طالب، فيما كان البقية منهم يجلسون وينتظرون دورهم، نظر إليها أحد الأساتذة بنظرة مُتجهمة..

وقال:

"من سمح لكِ بفتح الباب؟

قالت: "صباح الخير... آسفة.. لقد تأخرت.. ثم لقد طرقت الباب.. "

قاطعها.. "وماذا بعد.. لقد تأخرتِ كثيرًا.. ونحن لم نعد نستقبل أحدًا". ثم رمقها بنظرة أخرى مُتفحصًا إياها من أدنى حذائها المتآكل إلى أعلى رأسها الملفوف بوشاح فقد ترتيبه خلال سباقها المراثوني.

"انتهى. أغلقي الباب.. أنت مفصولة، لايمكنك الولوج.. ثم إنكِ تؤخرين عملنا ..."

"ولكن سيدي امنحني فرصة.. وترغرغت عيناها بالدموع..

"قلت انتهى.. هل أنتِ صماء.. إضافة إلى كونك لا تحترمين

مواعيدك، غادري الآن. "

وصاح بقسوة..أشعرها صداها بصغر حجمها، وعظيم قهرها، نظرت إلى الأستاذ الدكتور الذي يجاوره نظرة استعطاف لعله يرحم كسرتها، ولكن، دون جدوى، فسحبت نفسها المُنهزمة؛ والقليلة الحظ. لا بل عديمة الحظ؛ كما كان يُردد على مسامعها دائمًا زوج أمها.

عادت أدراج طريقها الذي سلكته قبل قليل كومضة البرق ولكن هذه المرة بخطى بطيئة جدًا ومتثاقلة، لقد حرمها من حلمها دون رحمة، دون أن يعلم شيئًا عن ظروفها.. فكرت.. كيف لإنسان يمتهن مهنة إنسانية كتلك أن يكون عديم الصبر، أم أنه حظها العاثر.. وزوج أمها المُتجبر.. قليل الرحمة والشفقة.. هو الذي رمى بها في بحر الفشل واليأس هذا..لم ترى بُدًا من العودة إلى بيتها مع حلمها المتهشم.

شرحت لأمها التي تألمت بشدة لألمها.. وباقتضاب مخنوق بعبراتها؛ أعلنت عن موت أمنيتها.. ونهاية رحلتها، ثم دلفت إلى غرفتها الصغيرة الباردة الخالية من كل أمل ومن كل حلم، وضعت يديها على وجهها وتفجرت شلالات الدموع المُنحدرة المُقتلعة لكل بقايا أحلامها وآمالها العالقة في أعماق.. أعماق.. وجدانها..بقيت على هذه الحال لفترة ثم ما لبثت أن مسحت دموعها ورفعت رأسها وهمست..

"يا رب لقد انتزع مني حلمي.. لقد ضاع مني أملي" ثم نهضت واتجهت إلى رف صغير كانت تضع عليه بعض كتبها.. وكان يعتليه مصحف صغير.

كانت قد اعتادت كلما ضاقت بها الحياة، أو تعبت من حماقات زوج أمها أن

تفتح المصحف وأن تقرأ أول آية تقع عليها عينيها..كانت تعتبر ذلك كلامًا من المولى لها؛ وكانت ترتاح إلى ذلك الخطاب، وتشعر أنها في معيته سبحانه وأنها ليست وحيدة.. يتيمة.. ومُهملة.. فتحت المصحف وأول آية كانت..

(وإنا لرادوه إليكِ..)

قرأتها.. ثم أعادت قراءتها.. وهل يمكن لحلمي أن يُرد إليَّ..؟ تساءلت باستغراب.. ولكنها على الأقل هدأت قليلًا من صدمة كسرة حلمها، مر يومان على ذلك الحادث، ثم تفاجأت بزيارة صديقة لها من المدرسة الثانوية، جاءتها لتُخبرها أن كلية الطب تفتح أبوابها للراغبين في الإلتحاق بقسم المولدات وأنه لايتطلب منها أي اختبار، خصوصًا وأن مجموع نقاطها ممتاز، وهكذا كان.. وهكذا مضت إلى الكلية مجددًا، والتحقت بذلك التخصص.

لم تكن راضية تماما، فحلمها كان أكبر من ذلك، لكنها اضطرت إلى القبول بهذا الحلم البديل، وتوالت السنتان بنجاح باهر، وخلالهما تعرفت على حسن طالب التمريض؛ ذلك الشخص الخجول الدمث الأخلاق الشبيه إلى حد كبير بها، أنهت دراستها وتم تعيينها في منطقة نائية في الأرياف، ولهذا السبب تشجع أخيرًا حسن على طلب الارتباط بها، فهو لا يريد أن تفرق بينهما وديان الحياة، ترددت بعض الشيء، إلا أن إلحاح أمها الشديد جعلها تقبل به، فهي ككل الأمهات تريد أن تطمئن عليها أولًا، ثم تريد أن تبعدها عن جبروت زوجها ثانيًا، فقبلت رحمة وانتقلت إلى حياتها الجديدة هناك..

وفي وحدة صحية صغيرة، وفي قرية معزولة، عملت مع زوجها، ورغم أن الإمكانيات كانت بسيطة ومتواضعة، وفي بعض الأحيان كانت منعدمة، لكنهما

كانا سعيدين..كانت ترفرف فوقهما حمامة العشق البيضاء تلك، والتي تجعل من الحياة قصيدة رائعة؛ قصيدة تسعد كل قارئ لها، وكانا يسعدان أكثر بجميل ما يقدماه إلى أهل تلك القرية، وأهل القرى المجاورة من خدمات..مرت الأيام بسرعة وتوفيت أمها، وحزنت لذلك كثيرًا، وبعد مضي بضع شهور، اقترح عليها حسن زيارة أهله لعل ذلك السفر يسلي عنها ويُعيد إليها بسمتها المفقودة.

لكن، سرعان ما انتهت تلك الزيارة؛ بزيارة أخرى لطبيب النساء، فبعد أن ضاقت نفسها من كلام الأقارب والمعارف، لعدم إنجابها على الرغم من مرور ثلاث سنوات من زواجها، قررت أخيرًا أن تستشير دكتورة لأمراض النساء، ولكن؛ ومرة أخرى انكسر الحلم.

"**انت يا رحمة مصابة بورم في الرحم.. وعلينا استئصاله...** " لم تع أو تفهم باقي الكلام الذي كانت تنطق به الطبيبة، كل ما كان يجول في خاطرها، هو حلم آخر منزوع منها.. وقشعريرة غريبة تلف روحها.. أفقدتها كل إحساس بالدفء، احتاجت بعدها للعديد من الأدوية حتى تتعافى من ألمها الجسدي، غير أن ألمها الروحي لم يسكن أبدًا..

فقد باتت عقيمًا وإلى الأبد، فهي لن تنجب ولن تفرح بالأمومة، ولن يُناديها أحد باسم ماما، كانت تحادث نفسها وهي مستلقية على أريكة صغيرة في غرفتها؛ "نعم إنها حكايتي أنا.. حكايتي التي تبدو باهتة.. لا حياة ولا سعادة فيها دائمة.... فهي عبارة عن خيبة أمل متكررة.. عن كسرة حلم متجدرة.. الحزن والقهر أتعبني.. لم يعد هناك من الأمل.. أو حتى من الأحلام ما أراه في الأفق.. كنت هناك في الصغر أراني فتاة تتطلع للمستقبل بشغف..فهو ذلك الغد الجميل المليء بالعطايا.. ولكن أنا هنا الآن امرأة.. نعم امرأة فقدت كل شيء.. بلا أصول

أو فروع.. شجرة ميتة..

أنظر إلى صورتي وأنا فتاة صغيرة.. فأدرك أن الحياة أخذت مني الكثير.. وهي لا تزال تُعاندني.. وكأن ما أخذته مني لا يكفي.. فالحرمان أصبح رفيقًا لي.. أنظر إلى الآخرين وأُدرك أنني لست بخير.. وكيف لي أن أكون وقد حُرمت من نعمة الأمومة.. نعم نعمة هي.. نعمة عظيمة تلك.. فهل تعلمون يا من رُزقتم بالذرية كم أنتم محظوظون؟

فأنتم لن تحسوا بهذا الألم أبدًا... ولا بانكسار القلب.... وقهر الدمع في المقل حتى لا يراها غيرك وهو يسألك ذلك السؤال البسيط... البسيط جدًا.. هل لديك أبناء...؟

لا.. أبدًا لن تعرفوا معنى ذلك.. من مثلي فقط يحس بما أقول.. " تعلق بصرها بمصحفها مجددًا، فتحته فإذا بنفس تلك الآية تطُل عليها بحنو.. (وإنا لرادوه إليكِ..)

ابتسمت وهدأت وقالت لنفسها..

"وأنا راضية بكل عطاءك "... فقد أدركت أن عطايا الإله تختلف تمامًا عن ما نحلم به وما نريده...

بعد فترة استعادت عافيتها وانهمكت في عملها مجددًا، كانت قد تعلمت الكثير، واكتسبت خبرة جيدة في مجالها، كانت تساعد في توعية النساء الأميات البسيطات، وما لبث أن ذاع صيتها بين تلك القرى النائية، فكانت مقصدًا للعديد منهن؛ تتابع حملهن بشطارة طبيب متخصص، فولد على يديها الكثير من الأطفال.. وكانت هي دائمة الابتسام.. عطوفة على الدوام.. حتى أطلق عليها هناك اسم ماما رحمة..

فكان الصغار الذين ولدوا على يديها يكبرون.. ثم يتزوجون.. فتقوم بتوليد ذلك الجيل الجديد أيضًا، وهكذا بقيت ماما رحمة تتابع عملها بمساندة رائعة ومباركة جميلة من زوجها، بقيت تخرج في ليال شاتية باردة، وتجتاز في حلكتها الشديدة، تلك البراري البعيدة، فقط هدفها مساعدة زوجة فقيرة على استقبال مولودة سعيدة.

وفي يوم أراد أحد أبنائها الذين ولدوا على يدها الحانية أن يُكرِّمها، فأعلم الصحافة بأمرها وعرفهم بإنجازاتها، وقد سألتها مراسلة إحدى المجلات مبتسمة..

"أنت الآن امرأة في الستين.. وأظن أنه آن الأوان كي تنعمي بالراحة خصوصًا بعد كل مجهوداتك.. العظيمة.. "

أجابت..

"راحتي هنا.. في عطية الله لي.. وفي الحلم الذي اختاره الله لي..في الحلم الذي رُد إليَّ مكسوًا بعباءة الرحمة..كنت أريد أن أصبح طبيبة.. فصرت مولدة لعشرات الأطفال..وكنت أريد أن أكون أمًا.. فأنقذني عُقمي من الموت.. وصرت أمًا لكل هؤلاء الأهالي..أظنني لا أستطيع أن أرد مثل هذه العطية الكبيرة.. و هذه المنة الجميلة بتركها يومًا.. سأبقى أعمل بكل فرح ورضا إلى أن يستردني الله..ختمت تلك المراسلة مقالتها وهي تقول..

" ليتنا ندرك نحن أيضا حقيقة ماهية أحلامنا..ليتني أنا أدرك ذلك.. ليتك أنت أيضًا تدرك ذلك أيها القارئ العزيز.. فكل الأحلام تولد بداخلنا، ونحن نولد من خلالها.. والمحظوظ فقط هو من يولد إن شاء.. من بين ثناياها مرات ومرات.. يولد كأنه إشراقة يوم جديد..

تمت بحمد الله